القصص

صور من هوميروس

١٨ - حروب طروادة

مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم ، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذي يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كأنما جثمت المنايا في كل خطوة فهي لهم بالمرصاد . . . طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك ، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون ، صائحين متهدجين : « يا لثارات پتروكاوس ! »

ووقف أپوللو وهو يتميز من الغيظ يشهد المركة ، ويرى حتى ترى ظلاما كثيفاً من التحريف والتصحيف قد غشيَ جميع صحفه ، وخيَّم على جميع سطوره ، فلا يبدو لعينك في وسط هذه الظلمة من شعاع الصواب ، إلاّ كما يبدو ضوءُ الشُّهُب من خَلَل السحاب ، ولا تكاد تقرأ سطراً خالياً من عدة كلمات محرفة ، أو مصحفة ، غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض ، يحتاج إصلاحها إلى زمن طويل ، وبحثٍ غير قليل ، وذهن غير كليل ؛ وتحفُّظ من الخطأ ، ودقة في الذوق الشعريّ ينفذ بها القارئ إلى وجه الصواب ؛ وحُسنِ اختيار في المحو والاثبات ، وتفهُّمٍ دقيق لما يقتضيه سياق الكلام من المعاني والأغراض ، ومعرفةٍ بأساليب الشعراء ومصطلحاتهم في كل عصر ، ليكون المحو والاثبات تابعين لما تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات وخبرةٍ واسعةٍ بالكتب اللغوية والأدبية ، وأغراض كلٍّ منها ، ومكان الفائدة منها ، ثم إعمال الذهن بلا كلل ، وإجهاد الفكر بلا سآمة في الألفاظ المحرفة ، والعبارات المثلقة ، التي لم يستقم معناها على وجه من الوجوه ، بتقليب حروفها بين التحوير والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، والاعجام والاهمال ، حتى يستقيم المعنى و يتضح الغرض مع الأمانة التامة على الأصول ، وعدم الخروج عنها إلاّ بالقدر المعقول .

هذا قليل من كثير من المشقات التي يعانيها الناظر في أمثال هذه الدواوين ليختار منها مجموعة ضخمة مصححة أقوم تصحيح كمختارات البارودي

أما شاعرية البارودي فسنحدثك عنها في العدد المقبل

أحمد الزين

٥٠٦٣

إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التي لم يحن بعد قطافها ، فلم يملك أن دنا منه وقال :

« على رسلك يا ابن پليوس ، فكأني بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة ، ومحاربتي أنا من دون أرباب الأولمپ خاصة ! ولكن هيهات ! فانك لا بد يوماً ذائق الموت الذي لن يذوقه إلّه في الأرض ولا في السموات ... فاقصد في تقتيل هؤلاء الأبرياء ، ولا يغرنك نصر قد تكون في آثاره هزائم . . . . . »

وعبس أخيل عبوسة قاتمة ، ثم نظر الى أپوللو مُغضباً وقال : « حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود ، وما فوّت عليّ من ثارات ... أعرج في سمائك الشامسة ، ودع بني الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف ... لقد أنقذت خصمي من قتلة محققة ، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار ، لتمرح في كنفك الفجار الأشرار ؟ . . . »

وانطلق أخيل يعدو في إثر هكتور ؛ وكان هكتور قد أخذته

المزة فأبى أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين

وكان بريام ، الملك الشيخ ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته ، فرأى ابنه واقفاً فى إحدى حنيّات الأسوار يستجم ، ويرسل فى رَهج الميدان عينين سادرتين محزونتين ، تشفان عن قلق عميق ، واضطراب دوى ، فريع الأب الفئود ، وزلزل زلزالا شديدا ، وطفق يئن أنيناً عالياً ، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين ، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الأسكائيـة قبل أن يلحق به أخيل ، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون ...

« أى بنى ! هكتور ! فيم تقف فى هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغيـة أخيل عليه لعنة السماء والآلهة ، بقتله بنىّ ، واهداره دماء مواطنىّ !

هلم يا بنى فحسبى ما جزعت على بوليدور ، وحزنت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون ، وحطم قلبى من الأسى على أبناء إليوم ! ...

هلم يا بنى فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها ، وليس لها بعدك من ولى ولا شفيع !

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن ، وأوقرت ظهره ويلات الحرب ، وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء ، فلا تكن أنت محنة المحن التى تحل به ، واستبق شبابك له يتّصل بك ، ولأمك المفجّعة تستلهم بقربك الصبر ، على ما كرّتها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض ، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها مشرق كل شمس ، وكلّ مغيب شمس

هلم يا هكتور إلىّ ! إلى والدتك ! إلى زوجك ! إلى طفلك الذى تكاد تسلمه لليتم ، وتدعه خلفك للشقاء ! ...

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحلن إشراق أيامنا ظلمة ، ويصبرن لألاء الحياة قتاما ... أو يرسفن فى أغلال الاستعباد حيث يقمن فى خدمة الاغريق الأوغاد ... !

هلم إلىّ يابنى ! فو أرباب الأولمب إنى لأرتعد فرقا كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير ، منبوذاً لضوارى هذه البرية التى طالما أطعمتها وأكرمت مثواها ... »

وصمت الملك ، ورأى أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته ، بل لبث مكانه يرمق الميدان فراح يضرب يدا بيد ، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه المجلل بتاج الشيب ، وندف الأيام ، وبهذه الشعلة البيضاء التى زادتها أحداث الزمان اضطراما ...

وكانت هيكوبا إلى جانبه ... هكيوبا مليكة إليوم ، ... هكيوبا الأم ... التى فجعها أخيل فى عدد من أعز أبنائها ، ويحاول اليوم أن يفجعها فى هكتور ، ابنها البكر ، وتاج الأمومة الوضّاح ، الذى تفخر به كل أم ، وتدل به كل والدة !

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : « هلم يا ولدى فانك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند ، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنعين فى حديدهم ، الكثيرين فى عديدهم

هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التى لم يبق لها من ولد غيرك ، ولا عز إلا فى جوارك ، ولا حمى إلا فى كنفك ، ولا مجنّ يرد عنها عوادى الأيام إلا فى ظلك ، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك ، وما تمد الآلهة فى أمدك ، وتشد به أزرك ... .

هلم يا بنى فقد أزعجتنى الرؤى ، وروعتنى الأحلام ، وجثمت فوق صدرى أشباح هذه الساحة التى تفتأ تلبس الحداد وتخلعه وتتزى بالنصر ثم تنزعه ، وإن سرت بطلا بفوز تنكص فتفجعه ، فتفقد أحلمه وتمزج بدمه أدمعه ... ... »

وكانت الملكة ، كما كان الملك ، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع ، وأحر الآهات ؛ بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التى تتحوى وتتكوم فى انتظار طائر تنقض عليه ؛ وكان عنى نفسه أن يأخذ أخيل على غرة ، فيريح طروادة منه ، ويظفر لنفسه بنفسه إكليلاً من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل

وكانت توسلات أبويه تتناثر فوق أذنيه ، ولا يصغى لها قلبه ، بل هو قد ظل يحلم فى يقظته أحلاماً معسولة ، كانت تطن فى خلده هكذا : « ضلة لى إذا ثنيت عنانى إلى المدينة ألوذ بها من أخيل ، فأرسف أبد الدهر فى حضيض العار ، وأطأطئ حياء كلما لقيت طروادياً يهمس فى أذن أخيه : إن هذا هكتور الذى ولى دبره ، ونكص على عقبيه ، ولم يجرؤ أن يلقى أخيل بمفرده فى

الميدان ... وأن أذهب من غادات اليوم وحرائرها إذا أنا وليت الأدبار ، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمرى مع ابن بليوس الذى تفزع الآلهة من ضرباته ، وتمور الأرض تحت عجلاته ، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه فى حين يبرز منها كالكوكب الدرى ! حشاى أن أعود أجرر أذيال الخيبة ، فإما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره ، وإما أن يريحنى هو من هذا الهم المقيم فأنفنى فى سبيل بلادى ومن أجل مملكتى ...

ثم نيم صراخ أبى وعويل أمى ؟ أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة ، ثم يفتحها أخيل على ، فيذبحنى كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول ، أو يضع الأغلال فى عنق ويجرنى فى شوارع (إليوم) كما تكون أذن الجارية فى يد النخاس بسوق الرقيق ! ؟

« حاشا ... بل خير لى ألف مرة أن أخوض غمار الملحمة ، ما دام لن يصيبنى إلا ما حتمت المقادير على ... »

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه ، وعلى كتفه الرمح المرقل وبه الظامئ المتيـد ، وفوق صدره العريض المرد سوابغ دروعه التى سردها الإله الحداد فلكان ، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة ، وتدبيب فى الجوارح كهرباء الرعب ، وتشعل فى الرؤوس ضرام الشيب ! !

وزاغ بصر هكتور ، واضطرمت مفاصله ، ووُجب قلبه ، واستُطير لبه ، وأحس كأن جبلاً ينحط على روحه فلا يكاد يقلها ، وذاب الثلج فى عروقه جمدت من الروع والفزع ، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم ، وتلعب بفؤاده الونى ...

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل ، ولكن إلى أين ؟ إنه حيثما تولى فثم وجه أخيل ! ! إن أخيل غدا آلافاً لا حصر لها من الأشباح المفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء ، وتأخذ على الطرواديين أنفاسهم !

وانطلق ابن بليوس فى إثر هكتور ، وأشرف عذارى اليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة وعكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح . وكان كلما أغذ هكتور أوخف أخيل فى أثره ، فكانا كالأبردين : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل ، حتى نال منهما الجهد ، وتفزعت الآلهة فى علياء الأولمب اشفاقاً على ابن بريام المظيم ، ورثاء لابن بليوس المهتاج ، ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور ، لولا أن أقنعته ابنته مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، فنحته من طريق الأقدار وأخلت بين أخيل وخصمه ...

وطافا حول طروادة ثلاثاً ، وما كادا يبدآ طوافهما الرابع ، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر ، فهوت كفة الحق بقتل هكتور ، واربد وجه أبولو وسقط فى يده ، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس ... !

وأسرعت مينرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء ، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه ، ويتنفس الصعداء ، حتى تذهب هى إلى هكتور تغريه بلقاء خصمه ، وتنفره من هذا الفرار الذى أضحك منه قيان إليوم وحسانها ...

واستَخْفَت مينرفا ، وبدت لهكتور فى هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس ، ثم راحت تحضه على الحرب ، وتحرضه على أخيل ، وتهون له من شأن زعيم الميرميدون ، وتعده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً ...

ولم يشك هكتور فى أن الذى يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس ، فوقف قليلاً يفرج عن قلبه بعض ما كربه من روع ، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع ، وفلتة العبارات المتقطعة الحزينة ، وخفقان القلب المضطرب ذى الوجيب !

وانثنى هكتور للقاء أخيل ...

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلاً ، بعد إذ كان مدبراً ، حتى طرب قلبه ، وشاعت بشاشة اللقاء فى زنده القوى وسواعده المفتولة ، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ تستعر بالتشوف إلى الانتقام فى فؤاده ، وتضطرم بلظى البطش فى سويدائه ؛ وتطل من عينيه تود لو تنقدح فى أضلاع هكتور ... !

وقال هكتور : « تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أنى كنت ألوذ بأذيال الهرب منك ، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة

حول إليوم ... ؟ ! لا ... فانى ما حاولت إلا إجهادك ، وأن ينال الاعياء منك ... والآن ، هأنذا قد انقلبت للقائك فاما أن أقتلك ، وإما أن تروى رمحك الظامئ من دمى . من يدرى ؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب ، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه !

بيد أننى أطمئنك من الآن يا أخيل ، إن أظفرتنى السماء بك ، فلن أفضحك فى هذه المدة السابغة من فوتك ، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التى لن تنفعك من المقادير من شىء ... ثم أعدك أيضاً ألا أفضحك بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثةً لا نأمة فيها ولا حياة .... لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك ، وتنوشك سباع البرية الموحشة التى تعج بالضوارى والكلاب .. لا ... لن أفعل من ذلك قليلا ولا كثيرا ... بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك الى سفائنك عزيزا فى قتلتك ، كما كنت عزيزا فى مماتك

والآن يا ابن پليوس ! هل تعدنى الوعد الذى وعدتك ، وعل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك ، إن أظفرتك السماء علىّ .. .. ؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن پريام ويقذفه بشواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم ، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التى تمرق الى هكتور كالبرق الخاطف ، لو أصابت منه عضواً لذهبت به الى الجحيم . . .

ولكن هكتور العظيم ينفتل انفتالةً عجلى ، فيهوى رمح أخيل الى أرض الساحة ، ويغوص ثمة الى ثلثيه ... إلا قليلا

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل ، لو لم تكن مينرڤا حاضرةً ، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل .... فلقد سارعت الى الرمح فانتزعته من الأرض ، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور . . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك ، قال ابن پريام : « أخيل ! ها قد طاشت ضربتك ، وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها ! ! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور ؛ غريمك وخصمك ، فلتبحث الآن من رأسك يا ابن پليوس....

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ، ويضيع بها فرصته ، حتى كانت مينرڤا قد أعادت الرمح الى أخيل . .. وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعةً ساخرةً بما قال هكتور ، الذى داعب هو الآخر رمحه ، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع فلكان ، ومنه الى الأرض ، فغاص فيها ؛ وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما ، وأصبح الموت أقرب اليه من حبل الوريد ؛ وتلفت ابن پريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر ، فصاح من الوجل يقول : « يا ديفوبوس ! يا ديفوبوس ! أغثنى يا ديفوبوس ! أدركنى يا ديفوبوس ! هات لى رمحاً يا ديفوبوس ... ... »

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً ، وبدت له مينرڤا وهى تبتسم ابتسامةً خبيثةً زلزلت أركان هكتور ، الذى فطن إلى الحيلة التى دخلت عليه ، فقال يخاطب الربة الساخرة ، وهو يكاد ينشق من الغيظ : « يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة ، فتقضى بعوقى فى معركة لا أحمل فيها سلاحاً ... ولكنى سأقاومك يا ابن پليوس ، فاذا سقطت فلن يكون لك فى ذلك فضل ولا محمدة ، واذهب من بعدها فصلٌ للخائنة التى نصرتك وآزرتك . . . »

وامتشق المسكين سيفه ، ولكن ماذا يصنع الجرازُ البتار فى ملحمة لا يقطر للموت فيها إلا على أسنة الرماح ! . . .

لقد انقضَّ أخيل على نغر طروادة وأملها المفخور فعاجله بشكة من رمحه الظامئ نفذت فى عنقه ، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التى يا طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء . . .

... « هكتور ! اليوم شفيت حزنى الممض على پتروكلوس ... واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا محمَّدة .. يا كلب طروادة المذؤوم !! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها . . . ألا فحدث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك . . . ! »

ويتهدج هكتور قائلاً : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ! استقسمك برأسك الرفيع ، وأبويك الحبيبين ، ألا تأخذ جثتى فتنبذها لكلابك ، وتعفر جبينى الحر بثرى الذلة بين أصحابك ، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بى ، وأن المقادير السوداء قد أنلتك على »

فيقول أخيل ، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه : « اطمئن يا هكتور ، فكلانا لا تستطيب إلا جزر الأبطال ، وستكون لها وليمة فاخرة . . . فو رأس أبيك لو ملأ لى بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك ، ليعود بك إلى إليوم ، ما رضينا بك بديلاً . . . »

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جائحة فى صدر هكتور تعذبه وتضنيه ، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة ، ويفتح عينيه ويقول : « أخيل ؟ لا تفترن بما تم لك من نصر ؛ فباريس أخى سيقتص منك لى ؛ وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلى . . . فى هيدز . . . وثمة سنلتقى ! »

ويموت البطل . . .

وتنطوى صحيفة مجيدة من صحائف طروادة . بل تنطوى أنصع صفحاتها جميعاً ، بموت هكتور

يا عجباً ! !

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه عند ما أنذر أخيل بسهم باريس ؟ !

* * *

وازدحم الميلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إليها حية فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة ...

ونزل أخيل من عربته ، فانحنى على الجثة ، ونزع عنها تلك العدة المزرزة التى نزعها هكتور عن جثة بتروكلوس . . . عدة أخيل ... فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل !

واستل ابن بليوس خنجره ، وأهوى على عَقِبَىْ هكتور نخرمهما ، وربط القدمين المزرتين فى مؤخر عربته الحربية ، ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها فى الساحة ، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول إليوم ، والرأس المظيم يتعثر بثرى الممعة القاحلة ، والطرواديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون ... إلا هذا الملك الشيخ ... بريام الذهول ... الذى راح يملأ الفضاء أنيناً موجعاً ، وشجواً مفزعاً ، ... وإلا هذه الأم الرزأة ... هكيوبا الملكة ... التى راحت تحثو التراب فوق رأسها ، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح ...

أما أندروماك ... فلها السماء ... ولها الآلهة ! !

لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور ، وترش الورود فى أرائك المخدع ، وتمد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان ... ولم تكن تفكر قط إلا فى عودة البطل مخضب الذيل بدماء الأعداء ...

ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر ... وكأن هاتفاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبأ ... ولكنها أيضاً شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكائية ... حيث وقف بريام يبكى ولده ... فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذرى دموعه ... وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطاً فى عربة أخيل ، وأخيل الجبار يطوى به الساحة ، ويذرع به الميدان ... حتى وجفت نفس الزوجة البائسة ، وخرت إلى الأرض مغشياً عليها ...

* * *

وأفاقت أندروماك التاعسة ...

وطفقت تبكى زوجها وترثيه بالهم

وطفقت نفسها تساقط عليه أنفساً ! ؟

لها بقية　　　　دريني خشبة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ

احمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً — الثمن ٢٠ قرشاً ما عدا أجرة البريد

حادث انتحار

بقلم حسين شوقي

عند ما دقت الساعة الثانية صباحا ، كان بار « الدب الأبيض » خالياً من خدمه ورواده ، عدا رجلين : أدولف الخمار الشيخ الذى ذهب إلى داخل المحل لتصفية حسابات اليوم ، وشاب جلس فى ركن منزو يشرب ويكتب ؛ ولم تمض فترة قصيرة على انزواء أدولف حتى سمع دوى رصاص فى البار ، فعاد مهرولا ، فوجد الشاب قتيلاً على كرسيه ، قتل نفسه بمسدس كان لا يزال بيده اليمنى ... فحصه أدولف فوجده قد مات من فوره ، بينما السيجارة التى كان يدخنها لا تزال مشتعلة .. وقع أدولف فى حيرة من أمره ، ثم أخذ يصخب ويلعن ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : ألم يكن الأجدر بهذا الأبله أن ينتحر فى بيته ؟

علام يزعج الخلق هكذا ؟

ثم فكر أدولف متحسراً فى النوم الذى لن يذوقه الليلة . إذ عليه أعمال كثيرة ... إخطار البوليس بالحادث ، وانتظار التحقيق القضائى الذى سوف يدوم ساعات ... وعلى رغم هذا شعر أدولف بشىء من العطف عند ما نظر ثانية إلى وجه القتيل لأنه كان شاباً بين العشرين والخامسة والعشرين ، ثم تنهد قائلاً :

إنه لم يحن أوان موته بعد !

إن الشباب يجلب العطف دائماً ، وبخاصة من جانب الذين فقدوه أمثال أدولف ، أو من جانب الذين فقدوا أشخاصا يعزونهم ماتوا فى ميعة الصبا ، أمثال أدولف أيضاً ، الذى فقد فى العام الماضى ابنة لم تبلغ العشرين بعد ...

وبعد أن أخطر أدولف البوليس بالحادث رجع عند الجثة ، ثم أخذ يحدق فى وجه القتيل ! إنه لا يعرفه أبداً ، فلقد كانت هذه زيارته الأولى للبار ... ثم رأى أدولف ورقة مكتوبة أمام الشاب فتناولها مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فقرأ ما يأتى :

الموقع على هذا (س) . . المولود فى . . والمقيم فى . . يقدم اعتذاره إلى صاحب بار الدب الأبيض من القلق الذى سيسببه له بعمله هذا . إن (س) يأسف لأنه لم يستطع أن ينتحر فى بيته كما كانت تقضى بذلك اللياقة ، لأن صاحبة الفندق الذى يقيم فيه سيدة عجوز مريضة بالقلب ، فأى انفعال يقضى عليها ؛ وإذا كان (س) قد اختار البار لفعلته ، فلكى يستطيع أن يتناول بضعة أقداح من « الويسكى » تنعشه فى رحلته الطويلة المظلمة . . ومع ذلك فان (س) واثق من أن هذا الحادث سوف يعوّض لصاحب البار ما أصابه من ضرر ، يعوّضه بالاعلان الذى يعمله هذا الانتحار للمحل . . إن (س) لا يأسف كثيراً على مفارقة الحياة لأنه لم يعد يملك شيئا ، والحياة بلا مال ، أمرّ فى نظره من جرعة ملح . . ثم (س) فوق ذلك لا يثق بالمستقبل ، ولا بنفسه ، فهو يعلم أنه لا شىء ، وانه لن يصير فى يوم من الأيام رجلا مثريا . . ومع ذلك فان (س) لم يخلف ديوناً . . بل لا يزال فى حجرته بالفندق بضعة جنيهات ، وهو يهديها الى جمعية الرفق بالحيوان ، لأنه لا يحب أن يخلف شيئاً لبنى جنسه ، إذ هو يحتقر الطبيعة البشرية ، ولا يستثنى منها نفسه . . إذ لم يكن ملاكا فى الحياة الدنيا ، بل كان كغيره مخادعاً . . بل (س) يأسف لأنه لم يحسن الخداع فى الحياة ، لأن الحياة فى نظره كلعبة « البوكر » لا يربح فيها إلا البارع فى الخداع . .

ومن الأسباب القوية لانتحار س أيضاً ، أن ضميره لم يكن مستريحاً ، فقد كان سببا فى وفاة فتاة فى العام الماضى فى ريعان الصبا ، ماتت كمداً لأنه وعدها بالزواج ولكنه لم يف بوعده ، لأنه فقير لا يستطيع أن يتزوج ، وهو لا يعترف بالحب مع البؤس . كم ودّ (س) أن يتناسى هذا الحادث ! ولكن ماذا يفعل فى ذلك الشيطان الصغير الذى يقطن داخل جسدنا والذى أخذ ينغص عليه الحياة من أجل هذا الحادث ؟ ... لهذا نجد (س) غير نادم كثيراً على مفارقة الحياة ... وبهذه المناسبة يطلب (س) الصفح من هيلانة (وهو اسم الفتاة) ...

ولكن أدولف الخمار لم يكمل قراءة الورقة ، بل قذف بها صارخا : آه من الوغد ! مسكينة هيلانة !

فلقد كانت هذه الفتاة ابنته . .

حسين شوقى